أسطورة الحب الخالد

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ ماجد فرحان سعيد

كان لأحد الملوك ثلاث بنات . وكان جمال الكبريين رائعاً ساحراً . أما الصغيرة فلقد تفردت بجمال عبقرى يعجز البيان عن إيفائه حقه من الوصف الصادق البليغ . وتضوعت فتنة سحرها وجمالها حتى صار الناس يتوافدون عليها من كل صوب وحدب ليتمتعوا بمشاهدتها ، ويؤدوا لها فروض الاحترام الذى لا يليق إلا بفينوس — إلهة الحب والجمال .

وغضبت فينوس على هذا التمرد الذى بدا لها من الناس ، فهزت رأسها بسخط قائلة : « أمن المعقول أن تقوى هذه المخلوقة البشرية على إهدار كرامتى واغتصابها ؟ اولكننى سأجعلها تندم وتتمنى لو لم يكن لها ذاك الجمال الخارق ! » . ثم دعت ابنها كيوپيد — وهو كما نعلم إله الحب — واستثارته بشكواها قائلة : « كل ما أريده منك يا ولدى العزيز أن تعاقب پسيشى ، تلك الحسناء المتمردة ؛ أريد أن تنتقم لى منها انتقاماً يطفىء غلتى ؛ دعها مثلا تعلق بحب شخص حقير ، يذيقها من صنوف الإهانات امرها وأقساها ! » . فتأهب كيوپيد لتنفيذ أوامرها ؛ وذهب إلى حديقتها الجميلة ، حيث يوجد نبعان ، أحدهما عذب ، والآخر ملح أجاج . وملأ من كل منهما إناء ، وأسرع به إلى مخدع پسيشى ، حيث وجدها نائمة ؛ وذرف على شفتيها بضع قطرات من الماء الملح ؛ ولكن منظرها الفاتن كان قد أثار فى قلبه آنذاك كوامن الحب والإشفاق . ثم وخز جانبها بطرف سهمه فاستفاقت مذعورة ، وفتحت عينيها لتشاهده ، إلا أنها لم تتمكن من رؤيته لأنه كان متخفياً . فاضطرب لحركتها حتى جرح نفسه بطرف سهمه . ولكنه لم يعبأ بجرحه ، وكل ما كان يبتغيه أن يخفف من الضر الذى ألحقه بها ؛ ولذلك عاد فذرف على جرحها بضع قطرات من البلسم الصافى .

ولم تجن پسيشى نفعاً من سحرها وجمالها بعد أن حل عليها غضب فينوس ، لأن أحداً لم يتقدم إليها طالباً الزواج ، مع أن أختيها ، رغما لا تضاهيانها سحراً وجمالا تزوجتا منذ وقت طويل . وجلست الحسناء وحيدة فى مخدعها ، وسئمت هذه الوحدة حتى وهذا الجمال ، هذا الجمال الذى نالت به أكبر المدح والإطراء ولكنه عجز عن إيقاظ الحب فى القلوب .

وخشى أبواها أن يكونا قد أثارا سخط الآلهة ، ولذلك استشارا الكهان فى أمرها ؛ فعلما إذ ذاك بأنه كتب لها أن لا يكون زوجها من البشر ، وإنما هو وحش مروع ينتظرها على قمة جبل قريب . فملأت هذه الكلمات قلبيهما رعباً وحزنا ؛ ولكن پسيشى قالت لها : — « ولم تنتحبان على الآن ؟ لقد كان أجدر بكما لو حزنتما عندما كان الناس ينثرون على باقات الثناء الذى لا أستحقه ، حتى بلغ بهم إجلالى أن دعونى فينوس ! إننى أقدر الآن بأننى ضحية ذلك اللقب ؛ هيا إذا أوصلانى إلى الجبل الذى سألقى عليه حظى العازب ! » .

وتمت جميع الترتيبات ؛ وأخذت الحسناء مكانها فى الموكب المتوجه إلى الجبل ، ما بين نحيب الناس وعويلهم . وهناك تركوها وحيدة ، وعادوا إلى بيوتهم .

وقفت الحسناء على حافة الجبل بقلب لاهث من شدة الخوف ، وعينين محمرتين من كثرة الدموع . وإذا بالريح الغريبة اللطيفة تأتى وتحملها إلى واد مزهر . وهناك ألقت بنفسها على الضفة الخضراء واستسلمت للنوم . ولما استفاقت نظرت حولها ، وإذا بها ترى حديقة غناء ضفرت على حوافى ممراتها أكاليل من الخضرة الزاهية ؛ فدخلتها ، ودهشت إذ رأت فى وسطها نبعاً تفيض منه مياه بلورية صافية ، وبالقرب من النبع قصراً بهياً ، أعمدته ذهبية لامعة ، وجدرانه مرصعة بالرسوم والنقوش البديعة التى تروق لها العين ، وتنعم القلب بالبهجة والسرور .

وعندما توغلت فى الحديقة ، رأت غرفاً وقاعات فخمة ، تفيض بالكنوز الثمينة وبثمرات الفن الرفيع والطبيعة الخلابة .

وإنها لكذلك ، إذ بها تسمع صوتاً يخاطبها قائلا : « أيتها الفتاة الفاضلة ! إن كل ما ترينه ملك لك ! وإنما الأصوات التي تسمعينها أصوات جواريك اللواتي ينتظرن تنفيذ ما تأمرين به . فإذا ما أردت الاستراحة فهناك على فراشك الوثير ؛ أما العشاء ، فإنه ينتظرك في الحجيلة المجاورة » .

وقبلت الحسناء كما أشير عليها ؛ فبعد أن استراحت جلست في الحجيلة ، حيث وجدت مائدة معدة ، عليها من المأكولات ألذها ، ومن الخمور أجودها . كما وإنها شنفت أذنيها لسماع الألحان العذبة التي كانت تعزفها فرقة موسيقية خفية .

ولكنها حتى ذلك الوقت لم تكن قد رأت زوجها الموعود ، لأنه كان يأتيها في ساعات الظلام ، ويغادرها قبل انبثاق الفجر . ولطالما تضرعت إليه أن يمكث عندها لتتمكن من مشاهدته ؛ ولكنه لم يكن ليوافق أبداً ، بل كثيراً ما كان يقول لها : — « ولم ترغبين في مشاهدتي ؟ هل تشكين في حبي لك ؟ إنني أخشى إن رأيتني إما أن تخافي مني ، أو أن يستحيل حبك لي عبادة حارة ؛ وكل ما أرجوه أن تقابليني بمثل حبي ! » .

وكأن هذا الجدال قد هدأها مدة من الزمن ، لا سيما وقد استمرأت تلك السعادة التي رتعت فيها . ولكنها عندما كانت تخلو بنفسها ، كانت تحن إلى أبويها وأختيها . وفي إحدى الليالي طلبت من زوجها أن يسمح لأختيها بزيارتها . فمنحها ذلك الطلب عن طيبة خاطر .

وأمرت الحسناء الريح الغربية بإحضارهما . فأقبلتا في الحال ، وعانقاها وتبادلن القبل مراراً . ثم دعتهما للدخول مخدعها والقصر الذهبي ، وأرتهما هناك كنوزها العديدة . فلما شاهدتا ما هي عليه من النعمة ورخاء البال ، بدأ الحسد ينخر في صدريهما . ولما استدرجتاها إلى الاعتراف بأنها حتى ذلك الحين لم تكن قد رأت زوجها ، بدأتا تنوياتها على خيانته ، وتوغران صدرها بشتى أنواع الشكوك ؛ وفي ذات مرة قالتا لها : — « أنسيت ما تنبأ به الكهان من أن زوجك ليس إنساناً ؟ ! إنه وحش مريع يتذيك الآن بكل لذيذ ليأكلك في النهاية لقمة سائغة ! فاعملي يا أختاه بنصيحتنا ؛ جهزي نفسك في الحال بمصباح وسكين حادة ؛ وعندما يكون زوجك غارقاً في نومه ، أشعلي المصباح ، واقتربي منه ، وتقني بنفسك على حقيقة حاله . فإذا تأكدت من صحة ما نقول ، فلا تتوانى دقيقة في قطع رأسه لتتخلصي منه ! » وقاومت بسيشي هذا الإغراء في بادىء الأمر ؛ غير أنها استسلمت له في النهاية . وما إن أضاءت المصباح واقتربت من زوجها ، حتى شاهدت بدلا من الوحش المخيف الذي حذرت منه ، إلاهاً جميلا ساحراً ، تتدلى على رقبته الناجية ووجنتيه الورديتين ، ضفائر ذهبية من الشعر ، وينتصب على كتفيه جناحان نديان أبيضان ، عليهما ريش لامع كنوار الربيع . وعندما أدنت المصباح من وجهه ، سقطت على كتفه قطرة من الزيت الساخن فاستفاق إذ ذاك مذعوراً ، وحدق فيها برهة ، ثم أطلق جناحيه للريح ؛ وطار من النافذة دون أن يفوه بكلمة واحدة . وعبثاً حاولت بسيشي أن تلحق به ؛ فلقد سقطت من النافذة على الأرض . وعندما رآها كيوپيد تتمرغ بالتراب ، توقف عن طيرانه ورجع إليها ثم قال : — « أكذا تقابلين حبي أيتها البلهاء ؟ أهكذا ، بعد أن عصيت أوامر والدتي واتخذتك زوجة لي ، تذعنين لإغواء أختيك وتحاولين قتلي ؟ ولكن ارجعي إليهما وافعلي ما تشائين ! واذكري أنني لن ألحق بك أي قصاص سوى أن أهجرك إلى الأبد ؛ إذ كيف يمكن للحب أن يأوي ما بين الشكوك ؟ ! » وما كاد ينهي كلامه حتى طار بعيداً وتركها مستلقية على الأرض تملأ المكان بعويلها ونحيبها .

واستعادت الحسناء بعض رشدها ونظرت حولها ، وإذ بالقصر والجنان قد تلاشت واختفت ؛ ووجدت نفسها على مقربة من مسكن أختيها . فقصدته ، وقصت عليهما ما حدث . فتظاهرتا بالحزن والإشفاق ، ولكنهما قد ابتهجتا داخليا ، وظنتا بأنه من الممكن أن يختار كيوپيد إحداهما بدلا منها . غير أنهما لم تجهرا بتلك الخطة ، بل صعدتا في الصباح التالي إلى الجبل ، ونادتا على الريح الغربية لكي تحملهما إلى كيوپيد . فلما قفزتا في الهواء سقطتا في الهاوية وقضى على حياتيهما .

أما بسيشي ، فقد أخذت تهيم على وجهها ليل نهار ، باحثة عن زوجها . فوقعت عيناها على رأس جبل شامخ ، يطل من فوق حاجبه هيكل بهي ، فتنهدت وقالت في نفسها : « أليس ممكناً أن يكون حبيبي هناك ؟ ! » . وأسرعت صوب قمته . وما كادت تدخله حتى رأت فيه أكواماً كبيرة من الحنطة والشعير ، نثرت حولها المناجل وآلات الحصاد . وأرادت تسترضي فينوس ، ولذا عمدت إلى فصل هذه الأشياء بعضها عن بعض . فلما رأتها سيريس — إلهة الحصاد — منهمكة في العمل ، خاطبتها قائلة : « مسكينة أيتها الفتاة ! ولكن

لا تكتشبي ، فسأرشدك إلى طريقة تهدئين بها غضب فينوس . إذهبي إليها ، وأظهري لها كل خضوع واحترام ، تنالي عفوها ، وتسترجعي زوجك المفقود» فوافقت بسيشي على هذا ، وتوجهت إلى هيكل فينوس . فلما رأتها الإلهة ، امت عيناها ببارق من الغضب ، وقالت : — « أتذكرين الآن فقط بأنني سيدتك ، أم جئت ههنا لتزوري زوجك المريض؟ سأختبرك الآن لأرى ما إذا كنت صالحة لأن تكوني زوجة له ! » ، وأمرت أن تقيمها إلى مخازن الهيكل حيث توجد كميات كبيرة من القمح والشعير والفول والذرة ، وقالت لها : — « أريني اجتهادك الآن في فصل هذه الحبوب ، بعضها عن بعض ، على أن تنتهي من ذلك قبل حلول المساء ! » . فلما أجالت بسيشي النظر فيما حولها ، وقفت بدهشة ويأس وذهول أمام تلك الكومة الكبيرة التي تحتاج إلى عمل ممض طويل . وأثار كيوبيد الشفقة في نفوس جيش من النمل ؛ وإذ ذاك توجه به نحو الكومة حيث فصل كل نوع على جانب ؛ ثم اختفى كيوبيد ومن معه في أقل من طرفة عين .

وعند حلول الغسق ، جاءت ڤينوس تميس بقدها اللطيف ، وتتيه بتاجها المحلى بالزهور . ولما رأت العمل قد تم ، لم تصدق أن بسيشي هي التي أنجزته . ولذا عزمت على اختبارها مرة ثانية . فدعتها في الصباح التالي وقالت لها : « أترين تلك الحديقة الممتدة على حقاف النهر ؟ هناك ستجدين قطيعاً من الخراف ، عليها أصواف ذهبية لامعة . اذهبي في الحال وأحضري إلى عينات مختلفة منها »

وذهبت بسيشي إلى ضفة النهر عازمة على تنفيذ ما أمرت به ولكن إله النهر أوحى إلى الأقصاب النابتة على ضفتيه بنغمات موزونة انسابت تخاطبها قائلة : — لا تحاولي أيتها الحسناء أن تقتربي الآن من النهر لئلا يغمرك فيضانه العظيم ! ولا تقتربي أيضاً من الكباش لئلا تقتلك بقرونها الطويلة ! ولكن انتظري إلى ما بعد الظهر ، فيستريح القطيع تحت ظلال الأشجار وتستطيعي آنذاك أن تجوزي بأمان ، فتجدي قطع الصوف الذهبي عالقة على الأشواك وعلى جذوع الأشجار ؛ وما عليك آنئذ إلا أن تجمعيها وتعودي بها إلى سيدتك ! » فعملت بسيشي كما أشير عليها ، ورجعت وبداها مملوءتان صوفاً لامعاً براقاً . وللمرة الثانية لم تحظ بسيشي برضى سيدتها التي أرادت أن تختبرها في ما ستؤول إليه تجربتها الثالثة والأخيرة ؛ فقالت لها : — « خذي هذا الصندوق واذهبي به إلى پروزرپاين — مليكة عالم الأموات — وقولي لها : إن سيدتي فينوس ترجوك بأن تضعي لها في هذا الصندوق شيئاً من جمالك ، كيما تستعيد بواسطته ما فقدته من حسنها وروائها في أثناء اعتنائها بابنها المريض ...

ولكن حذار من أن تتأخري عن الرجوع به قبل حلول المساء ! » . فظنت بسيشي أن هذا واسطة للقضاء عليها ، إذ كيف تستطيع الوصول إلى الظلال الجهنمية مشياً على الأقدام ؟ ولذا صعدت إلى برج عال لتقذف بنفسها عنه ، فتهبط إلى الظلال الخانقة في أقصر وقت . ولكن صوتاً من البرج صاح بها قائلا : « ولم تعمدين أيتها الحسناء إلى الانتحار بهذه الطريقة المزعجة ؟ » ثم دلها الصوت على طريقة تستطيع بها أن تجوز إلى العوالم الجهنمية بأمان ؛ ولكنه حذرها من فتح الصندوق . فعملت بموجب إشارته ووصلت بسلام إلى قصر الإلهة پروزرپاين حيث ملىء لها الصندوق بأثمن نوع من الجمال ، ثم أغلق وأعيد إليها ؛ فرجعت به قانعة مسرورة ؛ ولكن ألحت عليها في الطريق رغبة حافزة في فتحه ، لتأخذ شيئاً من الجمال الإلهي ، فتتطلى به وجنتيها ، وتظهر أمام حبيبها بمظهر فاتن أنيق . وفتحته ؛ وبلغت بها الدهشة أقصاها عندما لم تجد فيه شيئاً من الجمال قط ، وإنما انبعث منه نوم جهنمي استولى عليها وأسقطها في الحال على قارعة الطريق .

أما كيوبيد فقد برح به الشوق للقاء حبيبته ؛ فذهب إليها ، وجمع النوم عن جسمها ، وأعاده إلى الصندوق ، وأيقظها بوخزة خفيفة من طرف سهمه ، ثم قال : « أهكذا يعود بك حب الاستطلاع فيغوبك مرة ثانية ويكاد يودي بك إلى الهلاك؟ ! ولكن ما عليك من بأس؛ أتمي الآن فقط ما فرضته عليك والدتي ، وستنسى الماضي ثم طار كالبرق وحلق في أجواء الفضاء ، وطلب من المشتري — إله السماء العظيم وملك الآلهة جميعاً — أن يتوسط لدى أمه لتوافق على زواجه من بسيشي وتباركه . ففعل المشتري كذلك وعند ما نال موافقتها ، أمر بإحضار بسيشي إلى القصر السماوي حيث قدم لها شراب الآلهة ثم قال : « تشربين منه فتصبحين خالدة وسيدوم زواجكما إلى الأبد !

وهكذا استطاعت بسيشي بعد أن طهرتها المصائب والتجارب من أدران الخطيئة أن تتحد مع كيوبيد ، وأن تنعم معه بسعادة الحب الخالد .

صادق فرهاد سعيد